ASJP
Algerian Scientific Journal Platform

مجلة افاق للعلوم
Issn: 2507-7228 – Eissn: 2602-5345
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/351

المجلد: 08 العدد: 04(2023) ص616-634

صورة الخادم في المثل الشعبي اليمني

(Image of marginalized people in the yemeni folk proverb)

محمد صالح ناجي عبده
جامعة إب (اليمن)
msn833163@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
25 جويلية 2022
تاريخ القبول:
12 جانفي 2023

الكلمات المفتاحية:
- ✓ صورة الخادم.
- ✓ المثل الشعبي اليمني.
- ✓ مناهج متعددة.

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى معاينة صورة الخادم في المثل الشعبي اليمني، وقد عالجت الموضوع من خلال بعض مقولات النقد الثقافي، وآلية الوصف، وانتفعت بمقولات من النقد الأسلوبي والسيميائي. وقد سارت الدراسة وفق ما أعلنت عنه البنية النصية للأمثال من دلالات؛ فقد توقفت الدراسة عند رفض الثقافة الشعبية لمعايشة الخادم، وإيمانها بانعدام قيمته ونفعه، وعرضت رؤية المثل لسلوكه النفسي، وسلوكه الحسي الذي تشكّل في الجانب الصحي والاقتصادي والقولي. وقد احتفت الدراسة بقراءة الدلالات السطحية، والدلالات المُضمَرة للمثل، والتفتت إلى التشكيل الجمالي لبنيته النصية، وكشفت عن دورها في تعميق الدلالات المختلفة للمثل. وقد انتهت الدراسة إلى أن المثل الشعبي كشف عن هوية القناعة الشعبية في هذه الطبقة الاجتماعية؛ وهي قناعة تقوم على رفض الخادم واستبعاده من المجتمع، وضرورة حماية المجتمع منه، ومن قناعاته وسلوكياته السالبة.

Article info

Received
25 July 2022
Accepted
12 January2023

Keywords:
- ✓ *Image of marginalized*
- ✓ *people. the yemeni folk proverb.*
- ✓ *multiple methods.*

Abstract :

This study aims to examine the image of marginalized people in the Yemeni folk proverb. It has dealt with the subject through some sayings of cultural criticism and the mechanism of description. The study has benefited from stylistic and semiotic criticism and made use of semantics and textual structure of the proverbs. The study stopped at the popular cultural refusal to cohabit with this group of people, and that they are idle and lack of value and usefulness. In addition, the study showed how proverbs present the psychological and sensory behavior of this group of people that can be seen in their health, economic and verbal aspects. The study showed the superficial and the implicit connotations of the proverbs, as well as the aesthetic formation of textual structures, their role in deepening the various connotations of the proverbs. The study concluded that the popular proverbs revealed the identity of popular conviction concerning this social class. It is a conviction based on their rejection and exclusion from society, and the need to protect society from them, and their negative convictions and behaviors.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

. مقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة صورة الخادم في المثل الشعبي اليمني، وتحاول مفاتشة بنية المثل، وتسعى إلى تتبُّع دلالاته، والكشف عن قيمة الأداء الجمالي فيه، وإسهام هذا الأداء في إبراز دلالة المثل؛ وذلك للوعي بهوية الرؤية الشعبية لهذه الفئة الاجتماعية، وتصوُّرها لها، وقناعتها بها، والكشف عن هوية النسق الثقافي الذي يؤمن به المجموع الشعبي نحوها.

وتجيء أهمية هذه الدراسة من القيمة المعتبَرة للمثل الشعبي في التناول العلمي؛[1] فالمثل له خصوصيته اللغوية، وتقنياته التعبيرية، وله دلالاته، وقدرته الفائقة على التعبير عن الرؤية الشعبية. كما أن هذه الدراسة تسهم في رد الاعتبار للأخدام من التجاهل والإهمال. وقد مارست شخصية الخادم حضورها الخاص في نص المثل الشعبي اليمني؛ وهو مما أغرى بقراءة صورة هذه الشخصية، والتنقيب عن ملامحها في الذاكرة الشعبية. وعند القراءة في الأدب الشعبي لم تظهر دراسة في هذا الموضوع؛ وهو مما يمنح هذه المعالجة لونًا من المشروعية والقيمة، وقد انتفعت هذه الدراسة بدراسات عديدة في الأمثال، وخاصة تلك المتعلقة بالأمثال الشعبية اليمنية.[2] وقد جُمعت مادة الأمثال المتحدِّثة عن الخادم من كتب أمثال يمنية مهمة ومُعتبَرة،[3] ومن بعض الدراسات الاجتماعية الخاصة بطبقات المجتمع اليمني،[4] ومَثل واحد منها من الاستعمال الحي الذائع على ألسنة العامة.[5]

وقد عالجت الدراسة هذا الموضوع من خلال مشروع ثقافي، وانتفعت ببعض مقولاته؛ لأن عينة الدراسة من مكونات القضية الثقافية؛ فالنقد الثقافي يحتفي بالهامشي والقبيح، ويشتغل في قراءة عوالم الضد، ورصد التباينات بين النسق السطحي والمضمر، ويترصَّد مظاهر السلب والإيجاب بينهما،[6] والأمثال المتحدِّثة عن الخادم مُحمَّلة بدلالات مضمرة، وأكثرها يؤسس لنسق ثقافي يعلن عن حالات تسلط طبقي.[7] وقد حاولت الدراسة قراءة الدلالات التي تضيفها المكوِّنات الفنية في بنية الأمثال؛ فالمثل له بنية لغوية تغري بالحفر عن خباياها الفنية والجمالية؛[8] ومن ثم فقد استعانت الدراسة بمقولات بلاغية، وتقنيات أسلوبية، ورؤى سيميائية؛ وهذا مما أسهم في إبراز الرؤية العميقة للمثل، وإظهار السمات المضمرة للنسق الثقافي عن هذه الفئة في الأمثال المتحدِّثة عنها. وقد آثرت الدراسة تسمية هذه الفئة بالأخدام؛ مع أن ملفوظ المهمَّشين من التسميات الراقية لهم، والمستعملة في الجهات الرسمية؛ وذلك لشيوع هذه التسمية في الأمثال الشعبية اليمنية؛ ومن ثم يتحقَّق لون من التجانس بين عنوان الدراسة، والبنية النصية للأمثال.

وقد استهدفت الدراسة تدعيم دلالات بعض الأمثال بدلالات أمثال أخرى خارجة عن موضوع الأخدام؛ وذلك لتعزيز رؤية المثل الشعبي الخاص بالخادم، والكشف عن نظرة متكاملة لصورة الخادم في المثل؛ فهذه الأمثال تضيف قيمًا جديدة، وتبوح بدلالات أخرى، وتُعمِّق الوعي بهوية حضور الخادم في المثل الشعبي.

وقد بدا أن الوعي بدلالات المثل الشعبي يستلزم إدراك خصوصية البنية اللغوية التي يتميز بها المثل؛ إذ تبرُز دلالاته الدقيقة والخاصة من حالة التلقي الشعبي له، وقد تكون هناك فجوة بين الناجز الدلالي والمعطى اللغوي؛ ومن ثم يكون القارئ بحاجة إلى تقدير كلام؛ ليستقيم التركيب اللغوي للمَثل؛ ومن ذلك كله تبرُز قيمة شروح الأمثال، وتتجلَّى أهميتها الراصدة لكيفية التلقي الاجتماعي لمدلول الأمثال.

وقد انتظمت الدراسة في مبحث تمهيدي، وسبعة مباحث أخرى؛ حاول المبحث التمهيدي التعريف بالخادم وفئته الاجتماعية، والكشف عن أهم سمات هذه الفئة، وبما أن المثل الشعبي قد التفت إلى الخادم من زوايا عديدة؛ فقد انفرد كل مبحث في الدراسة بواحدة من تلك الزوايا؛ إذ عالج المبحث الأول فكرة التعايش الاجتماعي بين الخادم وغيره، واحتفى الثاني بغياب الخادم، وانعدام النفع منه،

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وتوقَّف الثالث عند السلوك النفسي للخادم، وتناول الرابع سلوكه الاقتصادي، وعرَضَ الخامس لبعض ممارساته الحسِّية، واعتنى السادس بالسلوك الصحي للخادم، وكشف السابع عن هوية فعله القولي، وانتهت الدراسة بخاتمة تضمُّ أهم النتائج الناجمة عنها.

مبحث تمهيدي:

الأخدام أو المهَمَّشُون هم أدنى طبقة في المجتمع اليمني، ويتَّسمون بسمات خاصة؛ ومنها: ملامحهم الإفريقية؛ لأن أغلبيتهم من أصول إفريقية، وأبرز هذه الملامح؛ هو سواد البشرة، والأنوف المفلطحة. ويعمل الأخدام في مهن يراها الذوق الشعبي من المهن الدنيا؛ فهم حمَّالون، ويعملون في تنظيف الشوارع، وغسيل السيارات، وإصلاح المجاري، وفي الغالب لا يهتمون بنظافة ملابسهم وأجسامهم، ويفضِّلون السكن في بيوت أو أكواخ رثة، ولا يرغبون في التعليم، ولا يحافظون على الشعائر الدينية، ولا يلتزمون بالقيم الأخلاقية، ويحرصون على التَّسوُّل، واستجداء الناس. ويتمتع الأخدام بقوة جسدية مميزة، ولهم هوس في الحصول على ما يحقق لهم الكيف، أو المزاج النفسي، ويقال: إنهم يأكلون موتاهم، ويأكلون اللحوم الميتة والفاسدة.[9] ومن هذه السمات كلها تتشكَّل صورة نمطية سالبة عن الأخدام في المجتمع اليمني؛ وهذا يتناغم مع المحمولات الدلالية للأمثال الشعبية، وينسجم مع صورة الأخدام في الذاكرة الشعبية، وقناعاتها في هذه الفئة.

ودلالات تسمية هذه الفئة بالأخدام لا ترتبط بالمدلول اللغوي الفصيح لهذه الكلمة؛ فالخادم في اللغة؛ هو من يقوم بحاجة غيره، وجمعه خُدَّام وخَدَم، ومنه الخَدَّام والخدوم والمستخدَم.[10] أما تسمية: **"الأخدام"**؛ إنما تعني جملة السمات المتوفِّرة في هذه الفئة الاجتماعية. كما أنه لا علاقة بين هذه التسمية ومفهوم العبودية؛ فالأخدام ليسوا عبيدًا. كما تبتعد دلالة الخادم عن تصوُّر تقديم الخدمات مع الامتهان أو الانتقاص، وبخس الخادم حقه؛ فقد أصبح الأخدام اليوم يَستغِلُّون من يخدمونهم، ويغالون في أجور خدماتهم بحجة أنه لا يوجد من سيقوم بها، أو لقناعتهم أنهم يستحقون أجر الخدمة، وضرورة الصدقة لهم، والتعاطف معهم، ومعاملتهم بلون من التساهل والسخاء، وهي قناعات تقف خلف سلوك التَّسوُّل الشائع لديهم.

ومن ذلك كله؛ فالتفات المثل الشعبي لهذه التسمية فيه قصدية إلى استدعاء السمات العامة في الأخدام؛ وهذا يتعزَّز بوجود أمثال تلتفت إلى بنية: **" خَدَمَ"** باشتقاقات مختلفة، ودلالات لغوية مألوفة، ومتناغمة مع الدلالات المعجمية؛ ومن ذلك: **" تتحجَّب من الخَدَّام، وتخرج على الورَّاد"**،[11] ومنه: **" خِدمة المالْ يا زين الخَدَم، وخدمة الدولة تراعي للُّقم"**،[12] ومنه: **" سيد القوم خادمهم"**،[13] وقد تكرَّرت بنية: **" خَدَّام"**، وبنية: **" خَدَم"** في أمثال أخرى،[14] وهذا مما يشي بأن المثل الشعبي يرمي إلى توظيف بنية الأخدام، وتفعيل دلالاتها الشعبية الخاصة بكل ملامحها التي يغلب عليها الملمح السلبي.

وقد حاول المثل الشعبي اليمني أن يُعبِّر عن سمات هذه الفئة، ويكشف عن رؤيته لها، ويستهدف إبراز دلالات خاصة بواسطتها، ويكشف عن ملامحها في النسق الثقافي الجمعي، وقد تعدَّدت الرؤى التي قدَّمها المثل المتناول للخادم، وهو ما تبوح به مباحث الدراسة.

المبحث الأول: رفض مبدأ التعايش الاجتماعي مع الخادم.

تضمَّن المثل الشعبي اليمني إشارات عديدة إلى تحذير غير الخادم من معايشة الخادم ومصاحبته؛ ومن ذلك قوله: **" من سايَر الخادم أصبحْ نادمْ"**، وقوله: **" من صَحِب الخادم يصبحْ نادمْ"**، وقوله: **" من عامَل الخادم أصبحْ نادمْ"**.[15] ويقرِّر الأكوع أن هذه الأمثال من تهامة؛ وهي البيئة الأساسية لفئة الأخدام؛ ومن ثم تبرُز دلالات الأمثال بصفتها خلاصة عن بيئة مُعتبَرة للخادم، ترتقي بقوة في اليقين، وتندغم بعمق في التصوُّر الدقيق للخادم.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

يتوجَّه الخطاب في هذه الأمثال إلى غير الخادم؛ وهو مخاطَب غائب، ويتسم بالعموم؛ ومن ثم يستوعب كل ذات من غير الأخدام، عايشت الخادم، أو تعاملت معه. وهذه الأمثال فيها تحذير من أشكال الصحبة والتعامل مع الخادم، وهي تُصدر حكمًا صريحًا في ذلك، وهو الندم؛ وهو شعور نفسي مفعم بالانكسار والذل، والامتهان والخزي، وهذا الحكم يشي بأن الخادم منبع العار، ومغموس في السلب؛ ومن ثم فقد فُسِّر الخادم في هذه الأمثال بأنه من يتَّصف بالأخلاق السيئة، أو من يتَّصف بعدم الوفاء والإخلاص، وأُرجع الندم إلى الفارق الاجتماعي بين المخاطَب والخادم.[16] وهذا التفسير يجعل غير الخادم الذي لا يتمتع بمكارم الأخلاق خادمًا؛ وهو مما يشي بأن الأمثال تتصوَّر الخادم تصورًا سالبًا، وتقدِّمه وهو مندغم في السوء والشر، والعيب والسقوط، والقبح والفساد والنقص.

وفي هذه الأمثال تحذير من الخادم، وتوجيه بضرورة مقاطعته، ولزوم نفيه واستبعاده، وهذا مما يشي بأن الثقافة الشعبية تتضمن أيديولوجيا تعمل لصالح الذوات المهيمنة، وتقوم بعملية تفكيك ملامح الترابط؛[17] فهي ترى أن هذا النفي يحقِّق حماية للمخاطَب من مظاهر السلب العديدة في الخادم، وفيه محاصرة للسلب، ومنع لتفشيه، ويحقُّق السلامة للقيم الاجتماعية؛ ومن ثم فهذه الأمثال تهدف إلى الحفاظ على ملامح التموضع الاجتماعي، والتباين الطبقي، وتحُول دون حدوث التماهي والذوبان بين الخادم وغيره.

وقد انتظمت هذه الأمثال في صيغ تعبيرية متماثلة، وهذا مؤشر للتماثل الدلالي والإيحائي بينها، وحدث فيها تغاير في بعض الصيغ؛ وهو مما يضيف الجديد في مسار التدليل، ومشروع الرؤية للمثل. ويلاحظ أن هذه الأمثال قد برزت بتقنية الشرط؛ وهو مما يشي بأن هذه الأمثال تستهدف صياغة قانون اجتماعي، يتماهى في فلسفة المنطق؛ فالمثل شكل منطقي أكثر منه تصوُّرًا،[18] ومنطق الشرط يؤكد حتمية الارتباط بين السبب والنتيجة؛ إذ يؤسس لعلاقة علِّيَّة بين مسايرة الخادم ومصاحبته ومعاملته، وبين الندم الناتج عن تلك العلاقة؛ فهذا الأسلوب يجعل الندامة نتيجة لا تقبل الجدل، ولا تتأخر عن مسبباتها؛ وهو مما يضمن تحقق كفاءة في إقناع المتلقي بمدلول المثل، والتزامه السلوكي في البعد عن الخادم، والاحتراز منه.

وقد حدث تنوُّع في فعل الشرط؛ فقد جاء بصيغة: **" سايَر، صاحَب أو صَحِب، عامَل"**،[19] وجاء جوابه بصيغة واحدة؛ وهي صيغة: **" نادم"**. وتعدُّد فعل الشرط فيه استقصاء لكثير من مظاهر التقارب مع الخادم؛ وهو مما يشي بأن المثل يهدف إلى منع أي مظهر للتعايش مع الخادم، ورفض للصحبة الطويلة والقصيرة، ورفض للمسايرة والتعامل بكل أشكاله وألوانه؛ فالتباينات في بنية الشرط تُمثِّل مداخل متعدِّدة إلي المتلقي؛ ومن ثم فمهما كانت هوية الارتباط بالخادم فالنتيجة واحدة، وهذا مما يوحي بمدى قوة نفي الأمثال للخادم من الحياة الاجتماعية، واستبعاده من دائرة العلاقات المجتمعية.

وتتعمَّق هذه الغاية من واحدية النتيجة الماثلة في الندم؛ وقد جاءت صيغته اسمية: **" نادم"**؛ لتوحي بأن المتعامل مع الخادم؛ يترافق معه هذا الشعور المنكسر بصورة مستمرة، ويظل يعاني من دوامه المر، وبقائه الثقيل معه، ويتحوَّل إلى وصمة عار تلاحقه مدى الدهر. ولعل المد في هذه البنية مما يعمق هذا الامتداد الزمني المملوء بالانكسار والمهانة، كما أن صوت الميم مفعم بنغم حزين؛ وهو مما يزيد من بث أجواء الحزن والتألم والأنين، وفي ذلك تبشيع لصحبة الخادم، ورصد لآثارها الوجدانية السالبة، وإيحاء بأن تلك الصحبة لها أثر نفسي وجداني مؤلم، وتُدخل من يقترفها في تأنيب متواصل، واحتراق وجداني أليم، وتآكل داخلي مرير؛ ومن ثم تتعمَّق حالة الإحساس المهين بالذل والخزي الناجم عن هذه الصحبة.

وقد اشتغلت تقنية الجناس بين بنية: **" خادم"**، وبنية: **" نادم"** بصورة تُعمِّق قيمة نفي الخادم؛ إذ تشي بأن الخادم يتناغم

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

AFAK for Sciences Journal مجلة آفاق للعلوم EISSN: 2602-5345 ISSN: 2507-7228

مع الندم، ويتجانس معه، والتناغم الموسيقي بين الملفوظين يحقّق استجابة نفسية عالية لقبول مدلولات هذه الأمثال، ودمج مفهوم الندم في ذات الخادم؛ ومن ثم تنجح تقنية التماثل الإيقاعي في إحداث أثر أعمق في تأسيس القناعة بالنأي عن الخادم، والاحتماء منه. ويُمثِّل هذا الملمح الإيقاعي لونًا من الافتتان بالقول، ويمنح نص المثل نوعًا من المهابة، ويساعد على التحكم في بنيته، والبوح باختتامه.[20] كما أنه يُعين على إبراز بعض الكلمات، ويعمل على تثبيتها في الذاكرة؛ وهو مما يسهم في ترسيخ المثل، وتسهيل تداوله، ويعلن عن تحقُّق البنية البلاغية والجمالية للمثل.[21] ولبنية الصبح دورها الإيحائي في تبشيع العلاقة بالخادم؛ فهي مُحمَّلة بدلالة التجدُّد؛ ومن ثم تشي بأن صحبة الخادم ندم متجدِّد. وهي بنية مرتبطة بأول النهار، وهو توقيت له خصائص طبيعية تؤهِّله لمحو ما قبله؛ لكن بشاعة هذه الصحبة تستعصي على المحو، وتتمرَّد على النسيان. كما أن الصبح يعني بداية النهار، وهو يؤسس للإيحاء باستمرار الندم وتدفقه، وتكراره دون توقُّف.

وفي هذه الأمثال تبرز تقنية التكرار؛ وهي تمتلك سلطة أعلى في ترسيخ دلالات المكوِّنات اللغوية المكرَّرة، وهي هنا تعمِّق دلالات الأمثال، وترفع درجة يقين المتلقي في اندغام التعامل مع الخادم في مفهوم الندم، وفي الانكسار النفسي بكل أوجاعه المؤرِّقة؛ فالتكرار هنا فيه إلحاح يعمِّق القناعة السالبة في الخادم، ويسهم في تأسيس نسق ثقافي، وقناعة عامة، ويرسخ أبعادها، ويوسِّع مداها؛ فالتكرار يزيد من تحذير القناعة برفض التعايش مع الخادم، ويسهم في تقطيع حبال التواصل معه، ويعمل على تمتين أسوار العزلة بين الخادم والمجتمع.

وتعدُّد هذا الأمثال، وتقارب الأداء التعبيري فيها؛ مما يوحي بأن المثل الشعبي يؤمن بقيمة التكرار، ويستملح فلسفته؛ ففي نصوص مَثَلية يقول:" **عشر كلام سحر**"،[22] ويقول:" **كثرة الدَّيْ في الآذان تغلب السحر في الأقلام**"؛[23] فالمثل الشعبي يرى أن التكرار له قوة تأثيرية فاعلة، ويمنح القول سحره الخاص، وله سلطته التأثيرية والإقناعية، وله غوايته في صناعة اليقين، وله فتنته في ترسيخ القناعات، فالتكرار يُحوِّل المحتمل إلى حقائق وفق منطوق الأمثال؛ ومن ثم ففيه ضمان لإقناع المخاطَب ببشاعة صحبة الخادم، وهذه الرؤية متناغمة مع الوظيفة الأساسية للمثل؛ وهي إبراز أحوال الحياة المتكرِّرة.[24]

كما أن تعدُّد الأمثال يعلن عن قناعة عالية في وجود آثار سلبية حقيقية من معايشة الخادم، وهذا مما يكشف عن قناعة راسخة في الذاكرة الشعبية لا يمكن تجاوزها، أو الإيمان بغير رؤيتها، وقد فَسَّر الأكوع المثل الأول بقوله:" **من صحب أراذل الناس ندم**"؛[25] وهذا التفسير يعلل رؤية الأمثال للخادم، ويتناص معها، ويكشف عن الدلالة المضمرة في بنية:" **الخادم**"؛ فمن خلال عملية استبدال البنى، وحذف المتشابه منها؛ سيتجلى أن بنية:" **الخادم**" ستتواجه مع بنية:" **أراذل**"؛ ومن ثم تتعرَّى الرؤية بصورة أوضح، ويتجلَّى الخادم بصفته رذلًا؛ إذ تضفي عليه هذه البنية سمات الدون والخِسَّة، وتدغمه في حيز الرداءة والقبح، لتشي بأنه ذات مرفوضة؛[26] وهذا ما يقف خلف تحذير الأمثال من معايشته.

وتؤكِّد الثقافة الشعبية من خلال الأمثال على ضرورة رفض الخادم؛ إذ يقول المثل:" **إذا ابيضَّ الخادم طرِّف له حِجْنَة**"،[27] وقد فَسَّر الأديمي هذا المثل؛ فقال بأن الحِجْنَة أداة من الحديد لحرث الأرض، ولعل المعنى أن الخادم يصبح مُكلفًا كغيره في الواجبات.[28] وهذا التفسير يشي بأن الوعي الشعبي يرى أن الخادم غير مُكلَّف؛ ومن ثم تضعه الثقافة الشعبية في مقام المهمَل؛ إذ يتساوى مع الحيوان والمجنون، والمريض بداء مزْمِن، وغيرهم من أصحاب الأعذار؛ لكن عذره شبه دائم، وهذا التصوُّر يؤكده سلوك الخادم؛ إذ لا يُقدِّس الواجب الديني، ولا يحتفي بالعرف الاجتماعي، ويستملح التموضع خارج التقاليد؛ ومن ثم يقدم المثل حالة افتراض لتجاوز الخادم لموضعه الأساسي

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

السلبي؛ وهو افتراض مملوء بالشك؛ لأن اليقين لا يزال قائمًا في أن الخادم لن يغادر موقعه الاجتماعي، ولن يتخلَّى عن ثقافته وسلوكه؛ وهو مما يعلن بقاءه في حالة نفي عن مجتمعه، وهذه الرؤية تدين الخادم، وتكشف عن زهده في حلم التحوُّل، وعزوفه عن هواجس التطلُّع، ورغبات الارتقاء.

والمثل يؤسس مشروعه الدلالي من خلال اللون وإستراتيجيته التدليلية؛ إذ تحتل بنية:" **ابيضَّ**" موقعًا متقدمًا من البنية النصية الكُلِّية للمثل، وهي تشتغل وفق ثنائية لونية ضدية؛ إذ تستنهض بنية السواد في فضاء المثل وفق تقنية تعبيرية تحيل إلى المعني النقيض للنص؛ فتقنية الشرط فيها افتراض لحدوث حالة البياض؛ وهي تشي بأن الخادم في الأساس أسود البشرة، وهذه الهوية اللونية واحدة من أهم السمات المميزة للخادم في الواقع، كما أنها تكشف عن طبقته الاجتماعية، وعن السمات العامة له. وحالة البياض تعني حالة خروج عن تلك الهوية؛ لأن البياض مؤشر للنظافة والراحة والرغادة، والتحضُّر والجمال؛ وهي سمات مغايرة للسمات العامة في الخادم؛ وهو مما يعني حدوث حالة تقارب مع القبيلي؛ ومن ثم يجيء المثل؛ ليقدم دلالته الكاشفة عن السلوك المطلوب مع هذا التحوُّل في الخادم؛ وهو سلوك يستلزمه الوعي الشعبي، ويؤمن بضرورته، ويتلخص في إعطاء الخادم آلة حرث الأرض، والعمل الشاق فيها؛ وهذا مما يسهم في إحداث تغيرات في وضعية الخادم الذي ابيضَّ لونه؛ لأن العمل في الأرض حقيق أن يجهد الخادم، ويملؤه بالأتربة والأوساخ، ويجعل رائحة العرق الكريهة تفوح منه، ويُحوِّل بياض بشرته إلى سواد؛ ومن ثم يعود الخادم إلى وضعه السابق والمفترض قبل التحوُّل والبياض؛ إذ سيعود أسود اللون، متسخ الثوب والجسد، وبرائحة مستقذَرة ومرفوضة.

ومن هذا كله يلاحظ أن المثل يعلن عن أن الثقافة الشعبية تستهدف صياغة قانون اجتماعي وثقافي من خلال تقنية الشرط لكيفية التعامل مع الخادم الذي يحاول مغادرة مقامه الاجتماعي، ويسعى للاندماج في المجتمع؛ فهي ترفض هذا التحوُّل، وتقف في وجه هذا التماهي، وتعمل على إبقاء الخادم في موضعه، وتعمِّق رسوبه في الدون، وفي العتبة السفلى؛ وهذا مما يسهم في الحفاظ على هيمنة بقية الطبقات وتعاليها، ويحمي نفوذها وتفرُّدها، وهو موقف أيديولوجي يمجِّد المركز، ويُقصي الهامش، ويعمل على تثبيت مقامه بقوه؛ فتقنية الشرط تقدم هذه الرؤية بلون من اليقين، وتستوجب فعل الجواب مع كل حالات فعل الشرط، وتُلازِم بينهما بصورة غير قابلة للمراجعة أو التوقف.

المبحث الثاني: غياب الخادم وانعدام قيمته:

يهدف المثل الشعبي أحيانًا إلى التعبير عن حالة غياب للخادم، وعدم تحقُّق النفع منه؛ ومن ثم يعلن عن رفضه للخادم بصورة ساخرة، ومملوءة بالاستحقار؛ ومن ذلك قول المثل:" **هَبَيْت لما مجنَّة الأخدام، وقلت: يا سادة يا كرامْ**".[29] يمكن الوعي بمنطوق المثل ودلالته من خلال رصد بنية لغوية فصيحة له؛ وتتلخص في الصياغة الآتية:" ذهبْتُ إلى مقبرة الأخدام، وناديت قائلًا: يا سادة يا كرام"، ويرى الأكوع أن دلالة المثل ماثلة في اعتقاد الجهلة في نفع الموتى، وهو ضمن تصوُّر شركي يناهض الحقيقة والدين.[30] واختيار المثل للأخدام؛ لا يخلو من دلالات أخرى أكثر أهمية؛ لأن الموتى من الأخدام، ومن غيرهم سواء في الغياب والعجز، وعدم النفع. ولعل الكشف عن فساد المعتقد، وتوقُّع النفع من الميت من خلال الخادم؛ مما يستهدف إدانة الخادم؛ إذ يبرزه المثل وهو متجرِّد من قيم الخير والنفع، وله دور في تضليل المجتمع، وإفساد معتقداته؛ إذ يباعد بينه وبين حقائق المنطق، وتوجيهات الدين.

كما أن المثل يوظف بنية:" **المَجنَّة**"، ويربطها بالأخدام، وهي بنية دالة على الموت، وترصده بلون من التعدُّد؛ فالمجنَّة يرقد فيها موتى متعدِّدون؛ ويتعمَّق هذا التعدُّد من خلال

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

صيغة الجمع في ملفوظ:" **الأخدام**"؛ ومن ثم يبرز ارتباط جمعي للأخدام بعالم الموت؛ وهو مما يؤكد قوة القناعة الشعبية السالبة في الأخدام دون استثناء. ونص المثل يجعل بنية:" **المَجنَّة**" قادرة على الاشتغال المجازي؛ ومن ثم فالخادم ميت في الثقافة الاجتماعية؛ فهو في الهامش، وخاضع للغياب والنفي، والامتهان والنسيان والزوال.

ويتعمَّق ذلك من تصوير المثل لغير الخادم؛ إذ يجيء وهو يمارس فعل الحركة الدافق بالحياة، ويحقِّق ملمح التفاعل مع الخادم، وحالة التقارب معه، والمظاهر المتنوعة لهذا التفاعل تحدُث مع الخادم الميت؛ ومن ثم فالمثل يوحي بأنه تقارب فاقد للقيمة، وتفاعل لا معنى له، وهو تصوُّر يدين هذا التفاعل، ويوعز بنفي مسؤوليته، ويشي بضرورة التخلي عنه. لقد استهدف المثلُ وضع الخادم في سياق الموت، وفي المقابل فالناطق بالمثل يمثل غير الخادم؛ وهو مندغم في الحياة بكل قيمها الفاعلة؛ فهو مفعم بالحركة، ويمتلك القدرة على التعبير، وصناعة الحوار، وتوجيه الخطاب؛ فهو يتمتع بالحياة، ويمارس وجوده الحُر والفاعل، ويُعبِّر عن نفسه، ويخبر عن أفعاله وأقواله؛ وهذا التقابل يمثل مفارقة مُرَّة؛ إذ يشي بأن الخادم كامن في عالم الغياب والفناء، وهو عالم الهامش والاستبعاد والنفي.

والنداء بالسيادة والكرامة فيه مفارقة مع دلالات المثل، ومع صورة الخادم في الذاكرة الشعبية؛ فنص المثل يُفرِّغ ملفوظات السيادة والكرم من دلالاتها؛ ومن ثم يبدو الخادم مُجرَّدًا من تلك المعاني؛ وهو مما يسهم في تعميق سلب الخادم من القيم الموجبة، وترسيخ قيم الوضاعة والنقص فيه، وتعميق حالة التهميش له؛ وهذا مما يجعل المثل كاشفًا عن حمق السلوك الذي قامت به الذات المتحدِّثة في المثل؛ فقد طلبت النفع من غير أهله؛ ومن ثم فالمثل يُعبِّر عن حالة ضياع مُركَّب لها؛ لأن خطابها يتَّجه إلى خادم أو ميت؛ ومن ثم فالمثل يندِّد بسوء الاختيار، ويؤكد انتفاء التوفيق في السلوك المرجو، وتحقيق النفع منه. وفي المثل تصوير للمسعى الخائب؛ إذ تبرُز ملامح الخيبة مضاعفة، وآثارها مؤلمة؛ فلم يتوفق غير الخادم في اختياره، وبرز الخادم فارغًا من القيمة، وهذا مما يبوح بأن هذا المثل فيه لون من المفارقة؛ وهي من مثيرات الضحك والسخرية؛ ومفعمة بدلالة تربوية إصلاحية، وفنية جمالية.[31]

ولهذا المثل وظيفة إخبارية بارزة من خلال تقنية الحكاية التي تتحدَّث فيه شخصية داخلية مشاركة؛ ومن ثم يقدِّم المثل مشهدًا دافقًا بالحياة؛ إذ يهيمن عليه وصف لأفعال الشخصية المتحدِّثة، ويتجاور الوصف مع السرد والحوار؛ ومن ثم يوظِّف المثل أهم الصيغ الأساسية في السرد، وهي سمات سردية تسهم في تفعيل إستراتيجية المثل، وتخصيب حضوره الحي المفعم بالحركة والتفوُّه والحوار، وتجعل درجة القناعة بمدلولات المثل عالية، وربما كانت هذه التقنية البارزة في مشهد تمثيلي من أخصب التقنيات التعبيرية المستخدمة في المثل الشعبي؛ لتدفقها بالحياة والحركة.

ويُعبِّر المثل عن رؤيته من خلال شخصية تتحدَّث عن نفسها، وهي تنتمي إلى فئة مختلفة عن الأخدام؛ ومن ثم يَحول المثل بين الخادم، وبين الفعل التعبيري، ويمنعه حتى من الرد على المنادي له، والتحاور معه؛ فالمثل يفوِّض نفسه لإبداء رؤيته، ويمنح الثقافة الشعبية حق التعبير، ويُبقي الخادم مغيَّبًا مهملًا وصامتًا مثل الميت، ولا يتجاوز حدود كونه موضوعًا؛ وهي ذروة الإقصاء والإهمال. ولعل مُركَّب:" **مقبرة الأخدام**"؛ مما يقلل من المعتقد الشعبي بأن الأخدام يأكلون موتاهم؛[32] فهذا التركيب المثلي الشعبي يستنهض شهادة المجتمع بوجود مقابر لموتى الأخدام.

المبحث الثالث: السلوك النفسي للخادم:

تلتفت الأمثال إلى بعض السلوكيات النفسية للخادم، وهي تهدف إلى تصوير طبيعة ميولاته، وترصد حركة رغباته الوجدانية، ومن ذلك قول المثل:" **خَرْمة خادم**".[33] تتَّجه دلالة الخرمة إلى شدة الحاجة للتدخين، والهوس النفسي به، والمثل يدين الهياج النفسي إلى السلوك المعتاد، ويستهجن الخضوع الذليل لسلطة العادة وقهرها، والميل الوجداني المستبد للمألوف، وسطوة المعتاد وضغطه الموجع؛ ففي ذلك

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

استذلال للذات الإنسانية، وتدمير للإرادة، ومحو للحرية الآدمية؛ إذ يقع الفرد أسير العادة، والاستعباد المهين للمألوف.

والمثل يربط الخَرَمة بالخادم عن طريق التضايف؛ ليوحي بامتلاكه لها، وخصوصيته بها، ويخبر بأنها سمة بارزة في الخادم، وتتجلَّى فيه بصورة شديدة القوة، بالغة العنف؛ ومن ثم يشي المثل بأن الخادم أسير مزاجه، وعبد لهواه، وينغمس بصورة فاجعة في ذل الهوى، ويستجيب استجابة ذليلة لنزعات نفسه، ورغباتها الملِحَّة، وفي هذا إدانة مؤلمة للخادم؛ إذ يقدِّمه المثل نموذجًا سلبيًّا، هش الإرادة، ضعيف العزيمة، خائر الطموح؛ ومن ثم يعمِّق المثل القناعة الاجتماعية السالبة في الخادم.

كما أن المثل له وظيفة تحذيرية؛ إذ يحذِّر غير الخادم من هذا الانهزام النفسي وأخطاره، ويحذِّره من التقارب النفسي مع الخادم، ويوجب عليه التموضع النفسي البعيد عنه، فلا بد من التباين الروحي، والتباعد الشعوري بينهما، وهو ما يحقق حالة من استبعاد الخادم، والاستعصاء عن عالمه الوجداني؛ ومن ثم يشتغل المثل وفق بنية استلزامية تسهم في البوح بدلالات مزدوجة، وهي دلالات متباينة من حيث الظهور والخفاء.[34] وإدانة المثل للتهافت النفسي وللخادم الممثِّل الحي لهذا الانجرار الذليل للرغبة؛ يتعمَّق من خلال أمثال أخرى تربط الذل بالعادة؛ إذ يقول المثل:" **الإلف بيت الهيانة**"؛[35] فهو يعلن عن مدى الأثر الذميم لها؛ وهذا مما يجعل المثل هنا كاشفًا عن استسلام الخادم لها، واندغامه المؤلم في الذل. ولا تقلل من ذلك شفقة المثل الشعبي حين قال:" **المولعي يرحم**"؛[36] فهذا المثل يرثيه، ويُعمِّق الوعي بمأساته وانهزامه.

وقد وظف هذا المثل تقنية الحذف بقوة؛ وهو مما أسهم في إبراز حالة اختزال في نص المثل، وجعله متسمًا بالكثافة اللغوية والإيجاز. كما أن أسلوب الحذف فيه استثارة للمتلقي؛ ليسهم في ردم فجوات النسق في التركيب اللغوي والدلالي للمثل، وفيه دعوة له للمشاركة في الوعي بالدلالة، والإسهام في إنتاجها، وفي ذلك تتحقق درجة عالية من التواصل بين الخطاب المثَلي والمتلقي.

وتوظِّف الأمثال تقنية تعبيرية أخرى؛ للكشف عن المزاج النفسي غير السوي للخادم؛ إذ يقول المثل:" **احترك معه النجاشي**".[37] يرى الأكوع أن هذا المثل كناية عن الشخص ذي الأصل الحبشي، فالرأي السائد عن هذا الشخص أنه يغلب عليه طباع العبيد؛ إذ يغضب من توافه الأمور.[38]

تحيل بنية:" **النجاشي**" إلى الحبشة؛ وهي الموطن الأصلي للأخدام، والمثل يوظِّف قناعة سائدة في التصوُّر الشعبي بأن العرق الحبشي يغلب عليه النزق والغضب السريع؛ وهي دلالة شعبية تتناغم مع تصور عالمي؛ فالأسود الأفريقي له سمات تحقق انفصامه عن المجتمع بنسب عالية وفارقة عن غيره من البِيض.[39]

وبنية:" **احترك**" مفعمة بدلالة الحركة، وهو فعل باذخ بدلالات الهياج النفسي والجسدي، ويبوح بحالة توتر مخيفة، وانفعال شديد وعنيف. والمثل يترقب من الخادم عند الغضب فقدان السيطرة على النفس، وحدوث أفعال سالبة، تتسم بالرعونة، وتحقق الإيذاء، وفي المقابل ينفي المثل عن الخادم العقل والحكمة، ويسلبه سمة الهدوء والثقة، ويراه بعيدًا عن الصبر والرزانة، ولا يمتلك القدرة على وزن الأمور بأقدارها، والتعامل البصير معها.

والمثل يوظف معتَقدًا شائعًا عن الخادم، وهو معتقد مدعوم من السلوك الحسي له؛ ومن ثم فللمثل وظائف عديدة؛ فهو يرصد السلوك المميز للخادم، ويوظف سلبية هذا السلوك في إدانة الخادم، وفي الوقت ذاته يدين من يتمثَّل هذا السلوك من غير الأخدام؛ وهي إدانة تجرِّد هذا الشخص من العقل، وتلحِقه بالأخدام؛ وهي حالة نفي اجتماعي مرير، وتعزير مؤلم. كما أن في المثل دعوة ضمنية إلى الحكمة والتصبُّر،

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

والهدوء والتعقُّل؛ وهي سمات تحقِّق كرامة الذات وإنسانيتها، وتُعلي صوت العقل على الهياج العصبي المجنون.

ويلاحظ أن هذا المثل لا يخلو من إثارة حالة صراع بين المحلي والخارجي، فبنية:" **النجاشي**"؛ تحيل إلى الخارج، والدخيل والأجنبي، وتقدِّمه بصورة الفاقد للعقل؛ ومن ثم ففضاء المثل يشي بأن المحلي أو الداخلي الوطني يتسم بالحكمة والعقل؛ وهذا مما يبرِز حالة الاقصاء للخادم عن المحلي، وربط شخصيته بالخارج الحبشي وفق هويته النفسية الهائجة؛ وهو مما يشي بأنه غريب؛ وهذا الاغتراب مفعم بالانفصام والقطيعة، والتباعد الممزوج بالوحشة، وعدم الألفة. والمثل يوحي بأن الدخيل مفعم بالخطر؛ وهو مما يثير الانتباه إليه، ويسهم في بناء الشعور المقاوِم له؛ ومن ثم فالمثل يُعبِّر عن حالة وعي شعبي بتجارب الدخلاء، ويكشف عن توجُّسه منهم، ووفرة المحاذير المتعلقة بهم.[40]

المبحث الرابع: السلوك الاقتصادي للخادم.

صوَّرت الأمثال الشعبية اليمنية السلوك الاقتصادي للخادم، وحاولت أن تكشف عن طريقة تعامله مع ما يمتلكه من المال، ومن ذلك فقد صورت كيف يستهلك راتبه الشهري؛ إذ يقول المثل:" **اتشاهروا الأخدام**".[41] والوعي بدلالة هذا المثل يستوجب معاينة دلالته وفق حالة التلقي الشعبي؛ وهذا التلقي يبوح بأن المثل:" يقال من باب المداعبة والسخرية أيضًا من الذين يستلمون رواتبهم ويصرفونها يوم استلامها".[42] وهذه الدلالة توحي بأن البنية اللغوية لهذا المثل لا تمتلك لياقة الكشف المرن عن المدلول؛ إذ يتعثر بعض مدلولات المشاركة التي قد توحي بها بنية:" **اتشاهروا**"، كما أن نص المثل لا يتضمن ما يشي بتعلق المثل بتبديد الراتب الشهري في يوم واحد، أو يوم استلامه؛ ومن ثم فإن هذه الاختلال التعبيري يستلزم الاعتماد على الدلالة الناجزة عن التلقي الشعبي للبنية النصية للمثل، وهي دلالة مُعبِّرة عن قيمة شروح الأمثال، وأهمية تسجيلها لدلالات الأمثال وفق التلقي الشعبي لها.

تبرُز البنية النصية للمثل في أسلوب خبري؛ وهذا الأسلوب يتجاوز تقديم دلالة محايدة؛ إذ لا يستهدف البوح بحدوث استلام المرتبات الشهرية؛ وإنما يضخ دلالات الدهشة، ومعاني السخرية من تبديد الراتب الشهري في يوم واحد؛ ومن ثم فالمثل يكشف عن أن الأخدام يمارسون الاستمتاع الباذخ والمسرف، ولهم سلوك اقتصادي مملوء بالحمق والسفه والطيش. وتتجلَّى الدهشة من هذا السلوك في استثارة تساؤل ضمني؛ يتطلع إلى معرفة مصدر الإنفاق في بقية الشهر، وكيف يمكن قبول التساوي بين اليوم والشهر. ولعل صيغة الجمع في بنية:" **الأخدام**"؛ مما يُعمِّق استفحال هذه السلوك الاقتصادي المتهوِّر، ويشي بأنه ثقافة عامة، وسلوك شائع لدى هذه الفئة الاجتماعية؛ ومن ثم تتعمق إدانة المثل للأخدام، وتتعرَّى بشاعة انعدام الترشيد في النفقة عندهم.

وتتأكد دلالة هذا المثل بمثل آخر يقول:" **الخادم يومه عيده**"، ويفسر الأكوع هذا المثل، ويحدِّد لمن يضرب؛ فيقول:" أي إن الخادم لا يهتم بغير يومه، والمثل يضرب لمن ينفق ما يتحصَّل عليه في يومه، ولا يدَّخر منه شيئًا لغده".[43] وهذا المثل يعمِّق الوعي بالهوية الاقتصادية للخادم، وهي ماثلة في الانفاق المسرف، والمثل يُعبِّر عن ذلك من خلال ملفوظ:" **عيده**"؛ فالعيد في العرف الاجتماعي والديني مناسبة سعيدة، وموسم يُفترَض فيه التوسُّع في النفقة، وإحداث حالة من البهجة والمتعة، ويتعذَّر أن يصبح السلوك الاقتصادي الكريم فيه إلى سلوك دائم؛ ومن ثم تتجلَّى حالة الدهشة من الخادم؛ إذ بمجرد أن يمتلك؛ فإنه يُحوِّل يومه إلى عيد، ويغدق على نفسه ببذخ، وهو في ذلك يكشف عن امتلاكه لرغبات جامحة، ونفس ضيقة؛ لا تعرف الصبر، ولا تستملح التحلي به، كما يشي ذلك بأن الخادم لا يمتلك رؤية للغد، ولا يفكِّر بالقادم. ربما كان وراء هذا السلوك يقين بأن" **كل يوم له رزق جديد**"،[44] وربما كان وراءه ثقة بإمكانية تدبير أمر الغد؛ إذا لم يكن ذلك بالعمل فبالتسوُّل، ويبقى الغد وخيارات

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

الحاجة فيه مفتوحة؛ ومن ثم يبرُز حمق هذا السلوك الأهوج بصورة أقوى.

ويلاحظ أن هذين المثلين يصوران سلوك طبقة الأخدام في المبالغة في الاستمتاع بما يملكون، ويعلن عن أنهم لا يؤمنون بالادخار، ومستوى تفكيرهم لا يتعدَّى حدود اليوم الواحد،[45] فهم لا يعرفون الاحتياط والتوفير، ولا يؤمنون بتأجيل المتعة أو توزيعها، فالغد لديهم وَهْم، وكل يوم له رزقه، ولا ينبغي أن يقع الإنسان أسيرًا لهم الغد، وفي ذلك تمرُّد على ثقافة الإنفاق السائدة والمعتبَرة، وانحباس مرير تحت سلطة الهوى الملِح، والرغبة الجامحة، والاشتهاء العاصف.

ويهدف المثلان إلى إدانة السلوك الاقتصادي للخادم وتبشيعه، ويكشفان عن حالة إسراف عابث ومقيت، ومبالغة مُرَّة في الاستمتاع، وانعدام فاجع لترشيد الإنفاق؛ ومن ثم تتشكل دلالة الاستهجان المر، والنقد اللاذع لهذا التصرُّف غير المسؤول. وهذه الإدانة تتَّجه إلى السلوك المبذِّر المفعم بالتهوُّر، وإلى الأخدام بصفتهم الذوات التي تتمثَّله في حياتها؛ ومن ثم تبرُز وظيفة مزدوجة للمثلين؛ إذ يحدث تبشيع للذوات والسلوك معًا؛ وهذا مما يعزِّز الدعوة إلى الانفصال عن هذه الطبقة، وعن سلوكها الاقتصادي، وهو مما يعمِّق الفروق بين الرؤى، ويضخم التباينات بين الخادم وغيره؛ ومن ثم تتعزَّز القناعة السالبة في الأخدام، وتتعمَّق حالة الانفصام بينهم وبين المجتمع. ويوظف المثلان السلوك الاقتصادي المتهوِّر للخادم؛ لتقديم رؤية تدين الخادم، وتندِّد بمن يسلك هذا المسلك من غير الأخدام، وهي تحز هذا الغير؛ إذ تلحقه بطبقة الأخدام؛ وهو انتساب مؤلم، ووصف موجع، وفي ذلك دعوة للحفاظ على المواقع الاجتماعية، ومنع للتماهي بين الأخدام وغيرهم. كما يبرِز المثلان قيمة الاقتصاد، وضرورة ربطه بالعقل، واندغامه في المستوى الاجتماعي الراقي، والسلوك الحضاري.

ولا يخلو خطاب الأمثال اليمنية من تحريض على الإنفاق، أو المبالغة فيه؛[46] وهو يجيء في أمثال تحثُّ على النفقة، والدعم الاجتماعي؛ لكن الوعي الثقافي المهيمن في هذه الأمثال؛ يبرُز في التعقُّل والادخار؛ إذ ترى الأمثال أن ترشيد الإنفاق فيه منافع كثيرة؛ فهو يحمي الإنسان من الامتهان، وذل التَّسوُّل؛ ومن ثم فالأمثال تبوح بأن" **التدبير نصف المعيشة**"،[47] أو ثلثها، وتري أن الإنفاق يحتاج إلى وعي وتبصُّر؛ فتقول:" **من أكل وما يحسبش؛ فِقر وما يدريش**"،[48] وهي توجِّه بالتوفير والادخار؛ فتقول:" **خلِّي من شبعك لجوعك**"،[49] وتحتاط للغد، وتغري بهذا الاحتياط:" **من خبأ من عشاه أصبح يراه**"،[50] وتؤمن بضرورة التعقُّل في التعامل المالي، وفي الإنفاق؛ فتقول:" **القرش يشتي رطل عقل**"،[51] وتكشف عن دور الاقتصاد في الخلاص من الشدة، وضغط الحاجة، ومرارة الضائقة؛ فتقول:" **القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود**".[52]

وهذه الرؤية الشعبية تتجانس مع الرؤية الدينية؛ فالقرآن يرصد السلوك القويم في الإنفاق في التوسط؛ إذ يقول:" **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما**"،[53] والوعي الثقافي الجمعي المهيمن يستلزم مراعاة المستقبل، والتخطيط للغد وفق المقولة التراثية الشائعة:" اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا". ومن خلال هذا كله؛ يتجلَّى أن هذه الأمثال تستهدف الكشف عن مدى ابتعاد الخادم عن الثقافة الاجتماعية والدينية، وانفصامه عن الثوابت الثقافية للمجتمع؛ وهو ما يكشف عن أن الخادم له رؤاه وسلوكياته الخاصة؛ إذ يتموضع بعيدًا عن المجتمع، ولا يتصالح معه؛ لا في الرؤية، ولا في السلوك.

وتقدم الأمثال صورة جديدة للوضع الاقتصادي للخادم؛ فتقول:" **الحراف جدُّه خادم**"؛ إذ يفسر الأكوع هذا المثل؛ فيقول:" الفقير لا يتحاشى من القيام بأعمال منافية للذوق والتقاليد"؛[54] وهذا يوحي بأن الحاجة تجعل الإنسان يمارس أي مهنة، وينتفع بكل ما يجعله يتكسَّب منه، ويبدِّد عوزه. فالمحتاج مضطر، وهو مضغوط تحت قهر الحاجة، ولا يمتلك

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

خيارًا في انتقاء العمل، ولا مجال له للتأفف من المهن المستهجنة في المجتمع.

والمثل يوظف سلوكيات الخادم المنافية للذوق العام، والتقاليد الاجتماعية، ويستثمر النسق الثقافي الجمعي الذي يرى أن الخادم ينفصم عن مجتمعه، ويتمرَّد على الثوابت الثقافية العامة، وذلك بهدف إدانة الفقير من خلال الرؤية الاجتماعية السالبة للخادم؛ ومن ثم فالمثل يرى الخادم سُبَّة، ووصمة مُخِلَّة في تجاهل العرف الاجتماعي، وامتهان القيم الراسخة فيه؛ ولهذا فالفقير الذي يمتهن الاعمال المرفوضة اجتماعيًّا؛ يجعله المثل مثل الخادم؛ ومن ثم ترقد في باطن المثل صورة تشبيهية؛ تُماثِل بين الفقير والخادم في الخروج على تقاليد المجتمع، وقناعاته الثابتة المتعلقة بالمهن؛ وهذا مما جعل المثل يتخذ من الدلالات السالبة في الخادم أداة تعبيرية؛ لإدانة التضحية بالقيم من أجل الانتفاع المادي.

وفي المثل غمز للخادم والفقير الذي سلك مسلك الخادم، وصار مثله؛ ففي المثل خادمان؛ والمثل يدينهما معًا، ويستهجن فيهما عدم التورع عن السلوك الشائه، والحرص الشديد على المنفعة، وتحقيق الكسب المادي على حساب الكسب الأدبي والقيمي والأخلاقي. ويلاحظ أن إدانة المهنة مشروطة بتضافر الرؤية الثقافية والدينية، وحدوث هذا التضافر يجعل تجاوز تلك الرؤية المزدوجة مدعاة للإدانة، ويعلن عن حالة تمرُّد ذميم؛ ووضعية مؤلمة.

ويتأسس المشروع الدلالي للمثل من خلال حالة الفقر؛ فالخادم في واقعه الاجتماعي فقير في الغالب، والمثل يربط الفقير به، ويستثمر حالة التماثل بينهما؛ ليرصد ملمح الانفصام عن السلطة الاجتماعية، وثوابتها الثقافية. ولهذه الرؤية قيمتها؛ لأن الوضع المادي البائس؛ هو واحد من أهم أسباب الاستبعاد الاجتماعي؛[55] إذ يسهم بقوة في تمزيق النسيج الاجتماعي، وتفكيك بنية المجتمع، ويحقق الانفصام بين الأخدام، وبقية فئات المجتمع.

ويمكن تقديم معني جديد للمثل؛ إذ يمكن أن يكون معناه أن الفقير ربما يعود فقره إلى سوء تدبيره الذي ورثه عن جدِّه؛ ومن ثم تكون رابط الدم قد أسهمت في تماثل السلوك وتجانسه، ويصبح المثل كاشفًا عن داء مستفحل لدى الأخدام؛ وهو ما أسهمت الأمثال السابقة في ترسيخه، والكشف عن أبعاده، وعلى ذلك يتحقق تعدُّد دلالي للمثل؛ وهذا الثراء ناجز عن بنية لغوية واحدة؛ وهو مما يشي بامتلاك نص المثل لقدرة تعبيرية فاعلة، وتمكُّنه من المناورة بأكثر من دلالة.

المبحث الخامس: السلوك الحسي للخادم:

صوَّر المثلُ الشعبي الخادم من خلال الالتفات إلى السلوك الحسي الذي يقوم به الخادم، وقد تنوَّع هذا السلوك الذي رصده المثل؛ فهو مَرة يلتفت إلى مهنة الخادم، ويقدِّم رؤيته للخادم من خلالها؛ ومن ذلك قول المثل:" **بوه يا خادم حضِّرْ؟**".[56] فهذا المثل يتساءل: هل هناك أمر للخادم بدق الطبول لأمر مهم؛ ومن ثم فالمثل يقال في فقد الأمل في الحلول السلمية، وضرورة الاحتراب والمواجهة.[57] والمثل يزاوج بين تكنيك التساؤل، وتكنيك النداء؛ وهي مزاوجة خصيبة؛ إذ تتَّجه الدلالة إلى طلب تحقيق الخدمة، والقيام بالفعل المرجو أو المتوقع. وفي الظاهر يبدو المثل وهو يقدم دلالاته بلون من الحياد؛ لكنه لا يخلو من إبراز ملمح السلب في الخادم من خلال المهنة؛ فالمثل يلتفت إلى فعل يقوم به الخادم دون سواه، وهي مهنة مرتبطة بالهامش الاجتماعي، ووظيفتها الإعلان للناس عن الحدث المطلوب؛ ومن ثم يسهم المثل في تعميق سمة الامتهان في الخادم؛ إذ يرسخ ارتباط هذه المهنة بالخادم، ويحافظ عليها من التحوُّل عنه إلى غيره، وهو حفاظ على الامتهان للخادم، وحرص على تموضعه في الهامش الاجتماعي.

كما أن المثل يماهي بين الخادم وبين سياق مشؤوم؛ إذ يجعل فعل الخادم هنا علامة سيميائية للحرب؛ والاحتراب وضع سلبي مرفوض، ومملوء بالشرور والفساد، والمثل يرصد حالة التناغم بين الخادم وذلك الواقع المرفوض، ويدمج الخادم مع هذا الواقع؛ فيجيء الخادم داعية للحرب، ومعلنًا للفعل الجمعي البائس، ويتعمَّق ذلك باستثمار المثل لفضائه

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

النصي؛ إذ يشي المثل بحدوث انفصام للخادم عن القيم الحضارية الماثلة في التصالح والسلام، وهنا يبرُز الخادم ومهنته أدوات للتعبير عن موضوع المثل ورؤيته، كما أفصح المثل عن موقع الخادم الماثل في الهامش الاجتماعي، وارتباطه الفاجع بالشر والموت.

وأحيانًا يصوِّر المثل السلوك الحسي للخادم من خلال زمن الفعل؛ وذلك وفق منطلقات مجازية، ومن ذلك قول المثل:" **ساعة الخادم**".[58] والمراد بساعة الخادم؛ هي وقت الظهيرة، وحينما تكون حرارة الشمس في ذروة قوتها، والمثل يشي بأن الخادم يمتلك قوة بدنية عالية؛ فهو يستملح السير في وهج الشمس، ويستعذب العمل في الهجير اللافح، وربما كانت القناعة الشعبية في الخادم مؤمنة بأن شدة الحر من الأوضاع المناخية الملائمة لعمل الخادم، ففيها تزداد قوته، ويرتفع نشاطه، وتتعالى فاعليته في العمل أو السير.

وربما أومأت دلالة المثل إلى الأصل الأفريقي للخادم؛ فأفريقيا تتميز بشدة الحرارة، ومن ثم فقد تأقلم جسد الخادم مع شدة الشمس، واعتاد على وهج الحر، والذاكرة الشعبية المحلية والخارجية تؤمن بالقوة البدنية للأسود، إذ تعتقد بامتلاكه لقوة عضلية وجسدية مميزة، وتمتُّعه برغبة جنسية ساخنة، ودرجة خصوبة عالية، وحدة في المزاج؛ وهي قناعات ليست بريئة؛ إذ تجيء على حساب القدرات الذهنية والإنسانية الموجبة للخادم.

ولعل المثل يخاطب غير الخادم، وهو يشي بأن للخادم خصوصية بدنية، وقدرة على التحمُّل؛ ومن ثم يُحذِّر المثل غير الخادم من السير أو العمل في الهاجرة، وهو تحذير مبطن بحدوث مخاطر كثيرة من الحر؛ ومن ثم فالمثل لا يخلو من إدانة للخادم، واتهام له بالحمق، والتفريط بنفسه، وعدم الوعي بالزمن المناسب للنشاط الإنساني. ويتوقع المثل أن غير الخادم لن يغامر هذه المغامرة المجهِدة، ولن يجود بنفسه للمشقة والعناء؛ ومن ثم تبرُز حالات التباين بين الخادم وغيره، وهذا مما يعمِّق الفجوة بينهما، ويبرِز حالة التغاير الاجتماعي. ويؤسس المثل دلالاته من خلال مفهوم الزمن؛ وهو ما يعلن عنه ملفوظ:" **ساعة**"، وقد تصدر بنية المثل؛ ليعلن عن مركزيته التركيبية والدلالية، وقد حدث ترابط بين هذه الملفوظ، وبين ملفوظ:" **الخادم**" عن طريق الإضافة؛ وهو مما يشي بخصوصية الخادم بهذا الزمن، وتفرُّده في العمل فيه، وهو تفرُّد ناهض على استبعاد من سواه.

وفي المثل تقنية حذف شديدة الخصوبة؛ فقد جاء المثل بصيغة مبتورة، لا تُحدِّد هوية هذه الساعة، ولا تُخبر عنها؛ ومن ثم فإن السياق التداولي للمثل هو الذي يقوم بالكشف عن المضمَر النصي للمثل، وهذا ما جعل المثل يبرُز ببنية نصية شديدة الاختزال، بالغة الكثافة، وهذا الحذف يمثل دعوة مثيرة للمتلقي؛ ليمارس حالة من التفاعل مع نص المثل، والعمل على تحريك بنيته النصية من أجل الظفر بالحمولة الدلالية للمثل، وتبدو التقديرات المحتملة بالغة التنوُّع والتعدُّد؛ وهو مما يوحي بمدى قدرة هذا المثل على إحداث حالة من التواصل الفاعل، والإثارة الدلالية المدهشة.

وساعة الظهيرة كامنة في منتصف النهار؛ وهذا التوقيت يجعل المثل يقدم الخادم خارجًا عن العرف الشعبي؛ لأن الأمثال فيها تواتر على أهمية التبكير؛ إذ تقول:" **البُكْر فيه النُّصَر**"[59] أو الظفر، وترى أن المتأخر عن أول النهار؛ تقل فرصته في النجاح؛ فتقول:" **من صابح المشراق قلَّ فلاحه**"،[60] وتقول:" **خير الأمور صباحها**"،[61] وتقول:" **لتشتي حاجتك تُقضى اسري لها بدري**"،[62] ووفرة هذه الأمثال توحي بمدى قوة القناعة الشعبية الموجبة في السلوك المبكِّر، كما أن دلالات هذه الأمثال متناغمة مع دلالة الحديث:" **اللهم بارك لأمتي في بكورها**"؛[63] ومن ثم تتعمَّق مخالفة الخادم للقيم الدينية والاجتماعية، وتترسَّخ حالة انفصامه عن مجتمعه.

وأحيانًا يلتفت المثل إلى بعض الأفعال الحسية المستهجَنة، ويصور بشاعتها من خلال الخادم؛ وفي ذلك يقول المثل:"

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

من فِسي فهو ابن الخادمة".[64] فهذا المثل يكشف عن فعل فاضح، وينسبه إلى الخادم؛ فالفعل:" **فسي**" من السلوكيات المهينة، وهو فعل حسي مستهجَن ومُقزِّز، ويستقذره الذوق الإنساني ويعيبه، لما له من أثر سيئ من صوت مخز، وأثر شمي كريه.

ويبرُز نص المثل بأسلوب الشرط؛ وهو في ذلك يقدم حمولته الدلالية بصورة قانون، يتحقق فيه مبدأ التلازم بين فعل الشرط والجواب؛ ومن ثم تساق الدلالة بمنطق لا يقبل التشكيك، ولا يسمح بالنقاش والمداولة. واختيار فعل الشرط يؤسِّس لتقديم تصور سلبي للجواب، ويسهم في صناعة ردود فعل مستهجَنة؛ ومن ثم يجيء المثل بحمولة دلالية سالبة، ويلحقها بالفاعل، ويقدم له نسبة بنوَّة إلى الأنثى؛ وهي نسبة تضيف جديدًا في السلب والإدانة؛ فهي مملوءة بالامتهان، ولا تخرج عن مشروع الشتيمة والتجريح، وذلك وفق قناعة الثقافة الشعبية المهيمنة في المرأة.

وقد تنوَّعت المكوِّنات اللغوية في تقنية الشرط؛ فقد جاء جواب فعل الشرط جملة اسمية؛ وهذه الاسمية تستهدف بث دلالات الثبات والخلود؛ ومن ثم فالفعل السلبي المهين يرتبط بالخادم أو ابن الخادمة بصورة دائمة، وغير قابلة للتحوُّل، والمثل يقوم بترحيل أي شخص يصدر عنه هذا الفعل إلى فئة الأخدام؛ ومن ثم يصبح الخادم وعالمه هو المثال الأسوأ والأحقر والأدنى. ولا يخلو المثل من تعميق الفروق الطبقية من خلال الفعل الممارَس؛ إذ يوحي المثل بأن الفعل السلبي مرتبط بالخادم، في حين أن الفعل الإيجابي مرتبط بغيره؛ ومن ثم يصبح الخادم مرتبطًا بالفعل المرفوض، والسلوك الشائه الذميم.

وتتعمَّق دلالة هذا المثل من رواية أخرى له؛ إذ تقول:" **من فسي؟ قالوا: ابن الخادمة"**؛[65] إذ يقدِّم هذا المثل الدلالة المركزية للمثل السابق؛ وذلك من خلال الحفاظ على مكوناته اللغوية الأساسية؛ ومن ثم فهو يتناص معه وفق فكرة المحاكاة والتحويل؛ لكنه يبرُز بتقنية أسلوبية مختلفة؛ فقد وظف تقنية الحكي المتضمِّنة لتقنية الحوار؛ وهي من التقنيات الفنية المهمة في المثل؛[66] إذ تسهم في تشكيل ملمح درامي فائض بالحياة؛ ويعيد معايشة الواقع من خلال عالم المثل.

وقد تعدَّدت فيه الأصوات، وهذ التعدُّد يؤسِّس لترسيخ قناعة مشتركة، ويهدف إلى بناء نسق ثقافي جمعي عام، وخلق رؤية سالبة عن الخادم؛ إذ يعمِّق الارتباط المتين بين السلوك المرفوض والخادم بصفته الذات الممتهَنة من قِبَل المجتمع؛ ومن ثم فالمثل يجعل السلوك المهين مرتبطًا بالخادم وفئته الاجتماعية. وفي المثلين ترميز للخادم؛ إذ يتم تحميله بدلالات سالبة؛ فهو يعادل الضعف والامتهان؛ ومن ثم فإن أي فعل سلبي في السلوك يبرُز مرتبطًا بالخادم؛ إذ يتحمَّل الخادم هذا السلب، ويُنسب إليه وإن لم يكن هو فاعله، وهي دلالة متناغمة مع مضرب المثلين؛ إذ يضربان للمُمتَهَن تُنسب إليه مساوئ غيره؛[67] وهذا مما يشي بأن الفعل:" **فسي**" يشتغل في نص المثل بقيمة رمزية؛ إذ يمثل رمزًا للفعل المعيب، والسلوك المخل.

المبحث السادس: السلوك الصحي للخادم.

يتميز الخادم في واقعه الحياتي بعزوف واضح عن التطهُّر؛ إذ لا يحتفي بنظافة جسده، ولا يرى ضرورة لتنظيف ملبسه أو بيته؛ وهذا مما رسخ في الوعي الشعبي ارتباط الخادم بفكرة النجاسة، وأبرز سلوك التباعد بين الخادم وغيره، فالآخر لا يدخل بيت الخادم، ولا يصافحه، ولا يأكل منه أو معه.[68]

والأمثال التي تعالج هذا الجانب تتضمَّن مخاطبة لغير الخادم؛ ليقوم بفعل وقائي من مخالطة الخادم في المأكل والمشرب؛ فمن حيث فعل الأكل القائم على المشاركة؛ يقول المثل:" **آكل يهودي، ولا تُأكل خادم".**[69] فهذا المثل يقوم على تقنية المقارنة لإبراز قذارة الخادم؛ فالمثل يربط بين اليهودي والخادم، ويوظِّف هذا الترابط في التأسيس لإدانة الخادم من الناحية الصحية.

واختيار اليهودي؛ ليكون الطرف الأول لمشروع المقارنة فيه التفات إلى تصوُّر خصيب عن اليهودي في الذاكرة الشعبية؛

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

فالمثل الشعبي اليمني يقدِّم اليهودي بكثير من السمات السالبة؛ فهو كافر بالإسلام، ومبغض لنبيه، وكاره للمسلم، ولا يمكن أن ينصحه، أو يسهم في تحقيق الخير له، وهو مُحتال وماكر، وحريص على المال، ويتعامل بالربا، ويستثمر كل خبراته في منفعة نفسه؛ ومن ثم فقد تعاملت الذائقة الشعبية معه بنوع من الرفض.[70] كما أن الذائقة الشعبية العربية لا تخرج عن هذا التصوُّر؛[71] وهذا مما يشي بقناعة شعبية عامة في القيمة السالبة لليهودي، ومع ذلك كله؛ فإنه عند مقارنته بالخادم؛ يتغيَّر الوضع، ويصبح الخادم أسوأ من اليهودي؛ وهو مما يعلن عن فرادة الخادم في السوء والقبح. كما أن المثل يوظف الواقع؛ فاليهودي يؤمن بفكرة النظافة، والخادم رافض لها؛ ومن ثم تتلاشى كل السمات السالبة في اليهودي حتى الكفر، وتبرز قذارة الخادم مع أنه مسلم؛ ومن ثم فالمثل يبوح بأن القذارة عائق يُبدِّد مظاهر التقارب الاجتماعي، والمشاركة الفاعلة فيه.

وهذا المثل ينوّع في تقنياته الأسلوبية؛ إذ يوظِّف أسلوب الأمر والنهي معًا، وكل واحد منهما يجيء في جملة؛ وهذا التعدُّد الأسلوبي من أخصب التقنيات التوجيهية، وأبلغها أثرًا، لأنه يشتغل وفق تصور مزدوج؛ إذ يضمن ممارسة المأمول، وترك المرفوض؛ ومن ثم تتحقق سلامة السلوك، وحكمة الفعل. ويتضمن الفعل:" **آكل**" دلالات المشاركة والتفاعل، والقرب المفعم بالأنس والمتعة؛ وتسليط النفي عليه يُبدِّد تلك المعاني بين المخاطَب والخادم، ويسهم في استنهاض النقيض لها؛ ومن ثم تتعمَّق دلالات القطيعة والبُعد بين المخاطَب والخادم؛ وفي ذلك إشارة إلى ضرورة حماية المخاطَب من نجاسة الخادم، ووقايته من مخاطر القرب منه، وضرر المشاركة له في الأكل. والمثل يؤسس دلالته من خلال توظيف تجاهل الخادم لنظافة جسمه وثيابه، وتفعيل معتقدات تقول بأكله للموتى، واللحوم الميتة والفاسدة؛ وهي دلالات قميئة بهذا النهي عن مُآكلته، وتفضيل اليهودي عليه في ذلك.

وتسلُّط النفي على ملفوظ:" **الخادم**"، هو تعبير عن حالة الاستبعاد الاجتماعي له، وإقصائه عن الاندماج في نسيج المجتمع؛ لافتقاده واحدة من السمات الحضارية للتعايش الاجتماعي؛ وهي سمة النظافة. والمثل يستهدف تقديم مبدأ حضاري؛ إذ يشي بأن التقابل بين اليهودي والخادم يمثل ذروة التباعد، ويوعز بأن الكافر النظيف مقبول من الناحية الاجتماعية، والمسلم الدنس مرفوض؛ لأن انسلاخه عن النظافة فيه تجرُّد عن سمة من أهم سمات الدين؛ ومن ثم تفوَّق اليهودي عليه بالطهارة والنظافة، وإن كانت حسية؛ فقد استحق الاندماج الاجتماعي الذي حُرِم منه الخادم غير النظيف.

والمثل يعلن بصورة ضمنية تموقع الخادم خارج الثقافة الاجتماعية؛ فالمثل الشعبي يؤكد أن:" **النظافة من الإيمان**"،[72] والنص القرآني يقول:" **إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**"،[73] والنص النبوي يقول:" **الطهور شطر الإيمان**"؛[74] وهذا مما يُبرز تمرُّد الخادم على الثقافة الشعبية والدينية، وتموضعه خارج الفعل المؤمن، وبعيدًا عن حب الله؛ ومن ثم يتجلَّى استحقاقه للاستبعاد الاجتماعي، والبقاء خارج النسيج المجتمعي؛ وهو مما يجعل المثل يقدم دلالاته، ويرفقها بأداء استدلالي ماهر؛ لإدانة الخادم، وتبشيع موقفه. ويلاحظ أن المثل يوجِّه خطابه للآخر؛ ليمتنع عن مشاركة الخادم في الأكل، وهذا يشي بأن الخادم غير مؤهل لتلقي الخطاب الثقافي، وغير قابل للوعي بالمخاطر الناجمة عن هذا التشارك؛ فهو متصالح مع الدنس، ولا يرى الخطورة الكامنة فيه؛ ومن ثم فخطاب المثل يستبعد الخادم، ويتوجَّه إلى من يؤمن بقيمة الطُّهر، ويعتقد بأهمية السلامة؛ فهو جدير بتنفيذ القطيعة مع الخادم، وحماية نفسه من الضرر.

ويؤكد المثل الشعبي الوعي بفكرة النجاسة في الخادم من خلال نص المثل القائل:" **غَسِّلْ بعد الكلب، واكسرْ بعد الخادم**".[75] لهذا المثل مضمرات نصية لا بد من إبرازها؛ لتستقيم دلالته؛ ففعل الغسل، وفعل الكسر يرتبطان بالإناء؛

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ومن ثم فبنية المثل تستهدف القول:" غَسِّل الإناء بعد الكلب، واكسره بعد الخادم". والمثل ينهض على مشروع المقارنة بين الكلب والخادم، وبناء المقارنة بهذا الأساس؛ فيه تذويب للفروق بين الخادم والكلب؛ وهي إدانة موجعة، وامتهان جارح للخادم؛ إذ يبرز الخادم بصورة الحيوان؛ ومن ثم فالمثل يُجرِّد الخادم من الإنسانية، ويسلبه قيمتها وشرفها وكرامتها؛ وهذا مما يجعل الخادم يتموضع خارج مجتمعه البشري، وهو ما يؤكده التصور الفلسفي؛ إذ يرى أرسطو أنه" لكي تعيش خارج المجتمع إما أن تكون حيوانًا أو إلهًا"،(76) كما أنه يضيف إلى ذلك سمة القذارة والدناءة والدنس.

ويتعزَّز ذلك بتقديم موضوع الكلب على موضوع الخادم؛ وهو تقديم يُكِنُّ ملامح الاحتفاء بالمتقدِّم، وينفعل بالضرر الأخف؛ ليظل الضَّرر الأكبر في مختتم المثل؛ وهو ما يكسبه فرصة أكبر للبقاء في ذهن المتلقي؛ ومن ثم يصبح وجوده الحي مداعاة لتنفيذ الفعل المرجو؛ لتتحقَّق السلامة الصحية للمخاطَب.

ولعل التحولات الماثلة في بنية الفعل؛ مما يعمق الدلالة العامة للمثل؛ ففعل الغسل بعد الكلب؛ يؤهل لاستخدام الإناء مرة أخرى؛ وهو استخدام آمن؛ خاصة والتركيب المثلي يتناص مع الحديث الشريف:" **طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب**"؛(77) فهذا التناص بإمكانياته التعبيرية القائمة على المحاكاة والتحويل؛ مما يسهم في بيان طريقة الغَسل؛ إذ يتم تسبيع الغسل، وتخصيص واحدة منها بالتراب؛ لما له من قدرة على فعل التطهير، وتحقيق الاستخدام الآمن للإناء.

والمثل يقدِّم الكلب بنجاسة يُمكن التَّغلب عليها، والانتفاع بالإناء بعد ذلك؛ لكن الوضع مع الخادم مختلف؛ فأكل الخادم في الإناء يستلزم إتلافه؛ إذ لا يصح استخدامه من جديد، ولا يجدي معه الغسل، ولو كان مُسبعًا، وكانت إحدى الغسلات بالتراب؛ ومن ثم فنجاسة الخادم تفوق نجاسة الكلب؛ إذ لا تجدي معها النظافة، ولا يمكن تطهيرها، ولا تتيح فرصة لاستعمال الإناء مرة ثانية. فالمثل يتجاوز حدود المقارنة المؤلمة بين الخادم والكلب؛ ليعلن أن الكلب أنظف من الخادم، وأخطاره أخف منه، كما أن المثل يشي بأن الكلب لا يتسبب في إلحاق الخسارة بفقدان الإناء وتكسيره كما هي الحال مع الخادم؛ ومن ثم تبرُز مفاسد أخرى للخادم، وهي تعمِّق تفوُّق أضراره على أضرار الكلب.

وقد تنوَّعت بنية الفعل في المثل؛ إذ ينهض نص المثل على تقنية تعبيرية وفق وضعية تواز بين الجُمل، مع حدوث تباينات في الفعل المرجو؛ وهو مما يحقق نتائج مختلفة، ودلالات متباينة؛ إذ تبرُز معها الفروق بين الكلب والخادم، وتتجلَّى ضرورة اختلاف التعامل مع كل منهما، وتبقى بنية فعل الأمر متضمِّنة لتوجيه تربوي؛ يتطلع إلى الفعل التطهيري المأمول، والمثل يهدف إلى ترسيخ فكرة نجاسة الخادم، وتعميق الإيمان بقذارته، وهي فكرة داعية إلى استبعاد الخادم أو الاحتماء من مشاركته في المأكل والمشرب أو الانتفاع بإناء استخدمه الخادم.

المبحث السابع: السلوك القولي للخادم.

يسعى المثل الشعبي أحيانًا إلى تصوير الفعل الحسِّي القولي للخادم، ومن ذلك المثل القائل:" **تَعلَّمَ الأدبْ في عُبَال**"،(78) ووفق تفسير الأكوع؛ فعُبَال هي قرية في باجل معظم سكانها من الأخدام، وهم يتميزون ببذاءة القول، وما يُخْجِل منه، والمثل يضرب لسليط اللسان.(79) وهذا المثل يوظِّف تقنية الخبر الممزوج بتقنية السرد؛ إذ يحكي عن ذات مرفوضة اجتماعيًّا، وهو يكشف عن انغماس تلك الذات في بيئة سيئة؛ فالمثل يستثمر اسم المكان، ويوظفه وفق تقنية المجاز؛ ليقدم إدانة فاجعة لأصحابه، وبنية المكان تمثل واحدة من أهم أدوات التمثيل.(80)

والمثل يستهدف تفريغ ملفوظ الأدب من دلالاته الأخلاقية الموجبة، للتعبير عن تبدُّد الفعل الأخلاقي القولي بكل مظاهره؛ فهو يُعبِّر بطريقة القول الهادف إلى إبراز الدلالة الضدية للَّفظ. ويستثمر المثل فرادة المكان في الفعل القولي

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

السالب، وهو من جهة يُدِين الخادم، ويفضح بذاءته القولية، وسقوطه اللساني؛ ليسهم في صناعة موقف رافض للخادم، ويثير في المتلقي حالة سخرية منه، واستهجان له، ودهشة من سلبية القول وفحشه لدى الخادم.

وفي المثل إدانة للذات البذيئة بصورة عامة، وذلك عن طريق نسبتها إلى الأخدام وبيئتهم الخاصة؛ وفي ذلك انتساب موجع، وتدمير لهذه الشخصية، وإخراج لها عن مجتمع غير الخادم؛ ويجيء هذا التصوير على أساس أن مجتمع غير الأخدام هو الأرقى والأكثر أدبًا في القول والفعل؛ ومن ثم يصنع المثل مباعدة اجتماعية، ويكشف عن حالة سقوط طبقي فاجع للخادم والبذيء.

ويقوم ملمح الرفض في المثل على قناعة أن القول الفاحش هو تهديد للنظام القولي الجمعي القائم على الجمال والنظافة، والتأدب والطُّهر، وفيه تمرُّد على الموروث الشعبي والديني؛ فقد جعلت الأمثال الكلام المقبول متسمًا باللين والحلاوة والعذوبة، وكشفت عن دوره الباهر في تحقيق الخلاص من العوائق مهما كانت قوتها وصلادتها، وهي دلالة إغرائية بالقول الجميل؛ ومن ثم يقول المثل:" **الكلمة اللينة تكسر العود اليابس**"،[81] ويقول:" **الحكاية الحالية تكسر العود اليابس**"،[82] ويقول:" **الكلام اللين يدق العظم اليابس**".[83]

والقرآن يوجِّه مرارًا بحسن القول؛ فيقول:" **وقولوا للناس حسنًا**"،[84] ويقول:" **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**"،[85] ويقول:" **وهدوا إلى الطيب من القول**"،[86] وفي الحديث الشريف إغراء بثواب المنطوق الحضاري؛ إذ يقول:" **والكلمة الطيبة صدقة**"،[87] ويكشف عن حالة تنافي بين البذاءة والإيمان؛ فيقول:" **ليس المؤمن بالطعان ولا باللعان ولا الفاحش البذيء**"؛[88] فالشعبي والديني يستملحان القول الحسن، ويؤمنان بقيمته، كما يرفضان فحش القول، ولهما قناعة بانتفاء الإنسانية عنه، وهما يوظفان ثنائية المقبول والمرفض منه بإلحاح شديد؛ لتعميق قيمة القول الحسن، ورفع درجة دمامة القول الفاحش؛ ومن ثم يصوِّر هذا المثل الخادم والبذيء وهما في حالة خروج عن القناعة الجمعية والدينية، وفي وضعية رفض للكلمة الراقية، والتعبير الحضاري.

والمثل يبوح بأن فحش القول لدى الخادم؛ هو من ملامح الانفلات من التصوُّر الجمعي، والتمرُّد على التصور الشعبي والتوجيه الديني، وهو تحدٍّ مُعلَن في وجه المساءلة الدينية في الآخرة. كما يبدو الخادم والبذيء في حالة اندغام في سلوكهما التدميري لمتعة القول، وسحر اللفظ، وحسن المنطوق؛ وهذا مما يوعز بضرورة استبعادهما من النسيج الاجتماعي، وأهمية الاحتماء الشعبي منهما.

الخاتمة:

في ختام هذه الدراسة؛ يمكن رصد عدد من النتائج لها، ومن أهمها ما يأتي:

- يحظى الخادم بحضور متواضع في المثل الشعبي اليمني؛ فقد تمكَّنت الدراسة من رصد ثمانية عشر مثلًا، وهو عدد قليل؛ وهذه القلة تكشف عن تموضع الخادم في الهامش الثقافي، وتبوح بحالة نفي للخادم، وتقدِّم صورة واضحة من النبذ الاجتماعي له؛ ومن ثم فمجيئه المتواضع في المثل كان بهدف حماية المجتمع منه ذاتًا وسلوكًا.
- صوَّر المثل الشعبي الخادم من جهات مختلفة؛ فقد أسَّس فكرة رفض التعايش مع الخادم، وأثبت غيابه الاجتماعي، وتجرُّده من المنفعة، ومنع تحوُّله عن موقعه الاجتماعي، وصوَّر سلوكه النفسي والحسي، وفي الجانب الحسي؛ صور المثل سلوكه الاقتصادي، والصحي، والحركي، والقولي؛ وهو تناول يتميز بالتنوُّع والخصوبة.
- برز الخادم في المثل الشعبي اليمني بصورة سالبة للغاية؛ فقد كشفت الأمثال عن كثير من سلوكياته المرفوضة، وقد أدانته الأمثال إدانة مُرَّة، وعزَّزت من فكرة استبعاده ونبذه، وأفصحت عن أن الثقافة الشعبية تمتهن الخادم بصورة قوية

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

ومؤلمة، وكان السبب كامنًا في تمرُّد الخادم على الثوابت الثقافية، والتقاليد الاجتماعية.

- تنوَّعت التقنيات التعبيرية للمثل في هذا الموضوع؛ فقد وظَّف المثل أسلوب الخبر، وأسلوب الشرط، وزاوج بين أسلوب السؤال والحكي والنداء، ووظف تقنية التكرار والحذف، والمجاز والتشبيه، والكناية والرمز، والمفارقة والمقارنة.
- حقَّقت هذه الأمثال وظائف عديدة؛ مثل الوظيفة الأخلاقية التعليمية، والنفسية، والحجاجية وغيرها؛[89] وهي وظائف كاشفة عن قيمة هذه الأمثال ودورها في تشكيل الوعي الجمعي.
- لم يظهر الخادم في المثل ناطقًا؛ فلم يسهم في تشكيل البنية اللغوي والدلالية للمثل الشعبي؛ وهذا مما يشي بأن الذاكرة الشعبية تمارس حالة من الاستبعاد للخادم من الحياة الثقافية، وتحول بينه وبين القول، وتؤمن بعدم أهليته له؛ وربما يعود ذلك إلى حالة الجهل لدى الخادم، وإيثاره المقيت لعدم التعلُّم، وهذا مما يجعله مملوءًا بالنقص، ومتسمًا بضحالة الوعي، وافتقاره للقدرة على صناعة البصيرة الإنسانية؛ ومن ثم فهو في هامش الحياة الثقافية، ويتلقى المعرفة من غيره، ولا يسهم في إنتاجها.
- أسهمت نصوص الأمثال في غير هذا الموضوع، والنصوص الدينية، والمقولات التراثية والفلسفية في إثراء الحمولة الدلالية للمثل المتحدِّث عن الخادم، وعمَّقت الوعي بأهمية الرؤية الشعبية، ومنحت رؤيتها للخادم نوعًا من المنطق والواقعية.
- مع أن هذه الأمثال قدَّمت صورة سالبة للأخدام؛ ففي الواقع هناك قلة منهم تمتلك مهارات جيدة، وطاقات موجبة، ومواهب مختلفة؛ ومن ثم تحتاج هذه العينات إلى الاحتفاء، ويحتاج غيرهم إلى جهود كبيرة لترويض تمرُّده الاجتماعي، ومعالجة اختلالات الرؤية لديه، وإن كان الأمر لا يخلو من مشقة.

الهوامش:

(1) انظر في ذلك: عبد الحميد الحسامي، النقد السياسي في المثل الشعبي، ص 11 - 13.

(2) يمكن معاينتها في قائمة المراجع.

(3) هي: الأمثال اليمانية لإسماعيل الأكوع، والأمثال الشعبية في عدن لانتباه السيد. والثروة اليمنية من الأمثال الشعبية لمحمد عثمان الأديمي.

(4) هي: الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني لقائد الشرجي.

(5) هو المثل القائل:" **ساعة الخادم**"؛ وهو مثل شائع على ألسنة الناس في منطقة الباحث.

(6) انظر: يوسف عليمات، جماليات التحليل الثقافي، ص 15، ص 23.

(7) انظر: عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، ص18، ص41، ص70.

(8) انظر: سومية أمزيان، المستويات الجمالية للمثل الشعبي الجزائري، ص ب.

(9) انظر: قائد الشرجي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، ص 270.

(10) انظر: مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، جـ1، ص221 - 222.

(11) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص324، المثل رقم 1115.

(12) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص452، المثل رقم 1648.

(13) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 592، المثل رقم 2281.

(14) انظر: إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص452، المثل رقم 1646. جـ2، ص817، المثل رقم 3303. جـ1، ص592، المثل رقم 2281.

(15) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص1226، المثل رقم5369. ص1238، المثل رقم5436. ص1247، المثل رقم5490. "بالترتيب".

(16) انظر: انتباه السيد أبو بكر، الأمثال الشعبية في عدن، ص 154، ص155.

(17) انظر: جون ستوري، النظرية الثقافية والنظرية الشعبية، ص 17.

(18) حاتم عبيد، المثل: قضاياه ومعناه، ص54.

(19) في الأمثال العدنية:" **من صاحب الخادم أصبح نادم**"؛ انظر: انتباه السيد أبو بكر، الأمثال الشعبية في عدن، ص 155.

(20) انظر: مصطفى ناصف، محاورات مع النثر العربي، ص 43.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

(21) انظر: نوال صالح، غواية المضحك: بحث في المثل الشعبي الساخر، ص344، ص245

(22) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 715، رقم 2832.

(23) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 838، رقم 3393.

(24) انظر: رودلف زلهايم، الأمثال العربية القديمة، ص 30.

(25) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 1226.

(26) انظر: المعجم الوسيط، جـ1، ص 353.

(27) محمد عثمان الأديمي، الثروة اليمنية من الأمثال الشعبية، ص 76.

(28) محمد عثمان الأديمي، الثروة اليمنية من الأمثال الشعبية، ص 76.

(29) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص1322، المثل رقم 5864.

(30) انظر: إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص1322.

(31) انظر: نوال صالح، غواية المضحك: بحث في المثل الشعبي الساخر، ص 346، ص 353.

(32) عن هذا المعتقد؛ : (https://ar.m.wikipedia.org). انظر: موقع.

(33) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 460، المثل رقم 1682.

(34) انظر: حاتم عبيد، المثل: قضاياه ومعناه، ص 49، ص 51.

(35) انظر: عبد الله البردُّوني، فنون الأدب الشعبي في اليمن، ص 472.

(36) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص1299، المثل رقم5752.

(37) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص57، المثل رقم 104.

(38) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص57.

(39) انظر: جون هيلز وآخرون، الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، ص325.

(40) انظر: عبد الله البردُّوني، فنون الأدب الشعبي في اليمن، ص 524.

(41) انتباه السيد أبو بكر، الأمثال الشعبية في عدن، ص 17.

(42) انتباه السيد أبو بكر، الأمثال الشعبية في عدن، ص 17.

(43) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص448، المثل رقم 1625.

(44) هذا مثل؛ انظر: إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 867، المثل رقم 3546.

(45) انظر: قائد الشرجبي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، ص 273.

(46) انظر: إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص178، المثل رقم 526. جـ2، ص 867، المثل رقم3545، ورقم 3546.

(47) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 330، المثل رقم 1138، ورقم 1139.

(48) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 1171، المثل رقم 5076.

(49) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 468، المثل رقم 1718.

(50) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص1199، المثل رقم 5220.

(51) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 809، المثل رقم 3271.

(52) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص808، المثل رقم 3265.

(53) سورة الفرقان، الآية رقم 67.

(54) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 415، المثل رقم1473.

(55) جون هيلز وآخرون، الاستبعاد الاجتماعي: محاولة للفهم، ص53، ص 116.

(56) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 300، المثل رقم 1014.

(57) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص300.

(58) من الأمثال الشائعة على الألسنة في بيئتنا بشرعب التابعة لمحافظة تعز.

(59) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص292، المثل رقم 979.

(60) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص1236، المثل رقم 5426.

(61) محمد عثمان الأديمي، الثروة اليمنية من الأمثال الشعبية، ص 200.

(62) محمد عثمان الأديمي، الثروة اليمنية من الأمثال الشعبية، ص 356.

(63) سليمان بن الأشعث، سنن أبي داوود، جـ4، ص 247، الحديث رقم 2606.

(64) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 1256، المثل رقم 5534.

(65) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 1256.

(66) انظر، نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ص 185.

(67) انظر: إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 1256.

(68) انظر: قائد الشرجبي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، ص 270.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

(69) انظر: قائد الشرجبي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، ص270.

(70) انظر: عبد الحميد الحسامي، ذاكرة الزنار: قراءة لصورة اليهودي في المثل الشعبي اليمني، ص 29 وما بعدها.

(71) انظر: خالد أبو الليل، صورة اليهودي في الأدب الشعبي العربي، ص43 - 145.

(72) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، ص1315، المثل رقم 5829.

(73) سورة البقرة، جزء من الآية رقم 222.

(74) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، الحديث رقم 223، ص 152.

(75) انظر: قائد الشرجبي، الشرائح الاجتماعية التقليدية في المجتمع اليمني، ص270.

(76) انظر: أرسطو طاليس، السياسة، ص 100.

(77) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ص173، رقم الحديث 279.

(78) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 337، المثل رقم 1169.

(79) انظر: إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 337، المثل رقم 1169.

(80) انظر: عبد المجيد قطامش، الأمثال العربية: دراسة تاريخية تحليلية، ص 446.

(81) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 879، المثل رقم 3609.

(82) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ1، ص 432، المثل رقم 1551.

(83) إسماعيل الأكوع، الأمثال اليمانية، جـ2، ص 872، المثل رقم 3574.

(84) سورة البقرة، جزء من الآية رقم 83.

(85) سورة الإسراء، جزء من الآية رقم 53.

(86) سورة الحج، جزء من الآية رقم 24.

(87) مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، ص 465، جزء من الحديث رقم 1009.

(88) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، جـ6، ص 390، رقم الحديث 3839.

(89) عن وظائف الأمثال؛ انظر: منذر كفافي، النظام القيمي في المثل الشعبي السعودي، ص 144.

Attribution - Pas d'Utilisation Commerciale - Pas de Modification 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)